بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ٢٩ -

سَيِّدُ الخَزْرَج

سَعْدُ بْنُ عُبَادَة

رَضِيَ اللهُ عَنه

مُقـدِّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ والصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِاللَّهِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَخاتَمِ النَّبِيِّينَ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ أمابعد:

فَإِنَّ الزَّعَامَةَ قَدْ تُورَثُ، وَقَدْ تَدْفَعُ إِلَيْهَا المَواهِبُ أَوِ العِلْمُ أَوِ الشَّجَاعَةُ أَوِ الكَرَمُ وَرُبَّما مُؤَهِّلاَتٌ ثَانِيَةٌ اقْتَضَتْهَا الظُّرُوفُ أَوْ دَفَعَتْ إِلَيْهَا الحَاجَةُ كَحُسْنِ الحَدِيثِ أَوْ إِجَادَةِ الخَطَابَةِ أَوْ نَظْمِ الشِّعْرِ أَوِ البَلاَغَةِ فِي القَوْلِ، وَالزَّعَامَةُ فِي أَيَّةِ صُورَةٍ مِنْ هَذِهِ الصُّوَرِ لاَ يُمْكِنُ بَقَاؤُهَا أَوِ المُحَافَظَةِ عَلَيْهَا إِلاَّ إِذَا تَوَفَّرَ لَهَا أَحَدُ عُنْصُرَيِ الجُودِ أَوِ الشَّجَاعَةِ إِذْ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَسُودَ قَوْمَهُ بَخِيلٌ وَلاَ أَنْ يَسْمُوَ جَبَانٌ إِلاَّ فِي حَالاَتٍ نَادِرَةٍ يُعْرَفُ فِيهَا أَحَدُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ وَلَكِنْ لاَ تَكُونُ لَهُمَا سِيَادَةٌ وَلاَ يَصِلاَنِ إِلَى مَرْكَزِ الزَّعَامَةِ.

وَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى عَصْرِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، وَنَظَرْنَا إِلَى الأنْصَارِ نَبْحَثُ عَنِ الجُودِ والشَّجَاعَةِ مَا أَعْتَقِدُ أَنْ نَتَعَدَّى آلَ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، إِذْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الأَسْرَةُ لِتُبَارَى فِي الكَرَمِ، وَكَانَ مِنْهَا القَادَةُ الشُّجْعَانُ والصَّنَادِيدُ الأَبْطَالُ.

كانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ وَعِدَّةُ آبَاءٍ لَهُ قَبْلَهُ فِي الجَاهِلِيَّةِ يُنَادَى عَلَى أُطُمِهِمْ: مَنْ أَحَبَّ الشَّحْمَ وَاللَّحْمَ فَلْيَأْتِ أُطُمَ دُلَيْمِ بنِ حَارِثَةَ. وَرَوَى هِشَامُ بنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَدْرَكْتُ سَعْدَ ابنَ عُبَادَةَ وَهُوَ يُنَادِي عَلَى أُطُمِهِ: مَنْ أَحَبَّ شَحْمًا أَوْ لَحْمًا فَلْيَأْتِ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ. ثُمَّ أَدْرَكْتُ ابْنَهُ مِثْلَ ذَلِكَ يَدْعُو بِهِ.

وَكَانَ لِسَعْدِ بنِ عُبَادَةَ جَفْنَةٌ تَدُورُ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بُيُوتِ أَزْوَاجِهِ، وَفِيهَا ثَرِيدٌ بِلَحْمٍ أَوْ ثَرِيدٌ بِلَبَنٍ أَوْ ثَرِيدٌ بِخَلٍّ وَزَيْتٍ أَوْ سَمْنٍ، وَأَكْثَرُ ذَلِكَ اللَّحْمُ. وَقَالَ قَيسُ بنُ سَعْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: زَارَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَنْزِلِنَا فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتَكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ.

وَرَوَى ابن أَبِي الدُّنْيَا مِنْ طَرِيقِ ابنِ سِيرِينَ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الصُّفَّةِ إِذَا أَمْسَوْا انْطَلَقَ الرَّجُلُ بِالوَاحِدِ، وَالرَّجُلُ

بالإثْنَيْنِ ، وَالرَّجُلُ بِالجَمَاعَـةِ ، فَأَمَّـا سَعْـدٌ فَكَانَ يَنْطَلِـقُ بِثَمَانِينَ. وَرَوَى أَبُو يَعْلَى مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «جَزَى اللَّهُ عَنَّا الأنْصَارَ خَيْراً لاَسِيَمَا عَبْدُاللَّهِ بنُ عَمْرِو بنِ حَرَامٍ وَسَعْدُ بنُ عُبَادَةَ.

وَرَوَى ابنُ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ مَاتَتْ أُمُّهُ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أُمِّي تُوفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا ، أَفَيَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَم ، قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ حَائِطِي المِخْرَافَ صَدَقَةٌ عَنْهَا. وَحَدَّثَ سَعِيدُ بنُ المُسَيَّبِ: أَنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ فَسَأَلَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: اسْقِ المَاءَ.

هَذِهِ بَعْضُ جَوَانِبِ كَرَمِ سَعْدِ بن عُبَادَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ تَكُنْ شَجَاعَتُهُ لِتَقِلَّ عَنْ جُودِهِ فَقَدْ حَضَرَ المَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِاسْتِثْنَاءِ بَدْرٍ ، تَخَلَّفَ عَنْهَا مُضْطَرَّاً وَأَبَلَى فِي المَعَارِكِ كُلِّهَا أَحْسَنَ البَلاَءَ ، وَقَدَّمَ نَمَاذِجَ مِنَ الشَّجَاعَةِ قَلَّ مَثِيلُهَا.

وَإِذَا كَانَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، سَيِّدُ الأَوْسِ بَلْ سَيِّدُ الأنْصَارِ هُوَ أَفْضَلُ الأنْصَارِ عِنْدَ المُسْلِمِينَ ، وَهُوَ بِمَثَابَـةِ

أَبِـي بَكْرٍ، رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ، بَيْنَ المُهَاجِـرِينَ، وَذَلِكَ لأَنَّ سَعْدَ بنَ مُعَاذٍ كَانَ أَكْثَرَ صَفَـاءً فِي إِيمَانِـهِ، وَأَكْثَـرَ طَاعَـةً بَيْنَ قَوْمِهِ، وَلاَ مُنَافِسَ لَهُ بَيْنَهُمْ، وَعِنْدَمَا أَسْلَمَ لَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي عَبْدِالأَشْهَلِ عَنِ الإِسْلاَمِ، وَلاَ عُرِفَ فِيهِمْ نِفَاقاً، فَإِنَّ هَذَا لاَ يُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِ سَعْدِ بنِ عُبَـادَةَ إِذ يَبْقَـى الصُّـورَةَ الصَّادِقَةَ عَنِ الأَنْصَارِ، وَلِكَثْرَةِ قَوْمِهِ الخَـزْرَجِ فَإِنَّ الزَّعَامَـةَ بَيْنَهُمْ كَثِيرَةٌ، وَبِـذَا يَبْقَـى أَيْضَـاً سَيِّدَ الأَكْثَـرِيَّةِ، وَبِاسْتِشْهَـادِ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي السَّنَةِ الخَامِسَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ يَزْدَادُ مَرْكَزُ سَعْدِ بنِ عُبَـادَةَ بَيْنَ الأَنْصَـارِ كُلِّهِـمْ، وَيَكُونُ سَيِّدَهُمْ جَمِيعَاً بِلاَ مُنَافِسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، وَعَـنْ صَحَابَـةِ رَسُولِ اللَّـهِ صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ أَجْمَعِينَ.

سَعْدُ بن عُبَادَةَ

وُلِدَ سَعْدُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي أُسْرَةٍ ثَرِيَّةٍ عُرِفَتْ بِالكَرَمِ وَبِهِ اشْتُهِرَتْ، فَوَرِثَ هَذِهِ الصِّفَةَ، وَكَانَ أَبْرَزَ أَبْنَاءِ المَدِينَةِ فِي هَذِهِ السِّمَةِ. وَلَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ الرِّجَالِ حَتَّى تَعَلَّمَ الكِتَابَةَ، وَهِيَ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ نَادِرَةٌ لاَ فِي المَدِينَةِ فَحَسْبُ بَلْ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ كُلِّهَا، كَمَا تَعَلَّمَ العَوْمَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وُجُودِ المَدِينَةِ فِي مَنْطِقَةٍ دَاخِلِيَّةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ البَحْرِ، وَكَانَتْ مَعْرِفَةُ العَوْمِ نَادِرَةً بَيْنَ سُكَّانِ المَنَاطِقِ النَّائِيَةِ عَنِ السَّوَاحِلِ، وَأَجَادَ الرَّمْيَ أَيْضاً، وَلِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَقَدْ عُرِفَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِالكَامِلِ.

كَانَ أَبُوهُ عُبَادَةُ بنُ دُلَيْمِ بنِ حَارِثَةَ أَحَدَ رِجَالِ الخَزْرَجِ بنِ سَاعِدَةَ المَشْهُورِينَ، وَكَانَتْ أُمُّهُ عَمْرَةُ الثَّالِثَةُ بِنْتُ مَسْعُودِ بنِ قَيْسِ أَحَدِ وُجَهَاءِ بَنِي النَّجَارِ بنِ الخَزْرَجِ، فَسَعْدُ بنُ عُبَادَةَ قَدْ وَرِثَ المَجْدَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ، وَقَبَضَ عَلَيْهِ مِنْ أَطْرَافِهِ.

تَزَوَّجَ سَعْدُ بنُ عُبادَةَ غُزَيَّةَ بِنْتَ سَعْدِ بنِ خَلِيفَةَ مِنْ بَنِي سَاعِدَةَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ سَعِيداً، وَمُحَمَّداً، وَعَبْدَالرَّحْمنِ.

وَتَزَوَّجَ فُكَيْهَةَ بِنْتَ عُبَيْدِ بنِ دُلَيْمٍ مِنْ بَنِي سَاعِدَةَ أَيْضاً، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّهِ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ قَيْساً، وَأُمَامَةَ، وَسَدُوساً. وَيُكَنَّى سَعْدٌ أَبَا ثَابِتٍ، كَمَا يُكَنَّى بِأَبِي قَيْسٍ.

وَعَاشَ سَعْدٌ مَرْحَلَةَ شَبَابِهِ فِي المَدِينَةِ كَبَاقِي أَبْنَاءِ قَوْمِهِ عَلَى حَيَاةِ الجَاهِلِيَّةِ، يَمْرَحُ كَمَا يَشَاءُ لَهُ هَوَاهُ، وَيَبْذَخُ كَمَا يَحْلُو لَهُ، وَإِنْ كَانَ يَخْتَلِفُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ فِي أَنَّهُ كَانَ مُتَفَتِّحَ الذِّهْنِ، مُفَكِّراً فِي أُمُورِ حَيَاتِهِ، لاَ يُرْضِيهِ مَا النَّاسُ عَلَيْهِ، يَنْظُرُ إِلَى عِيشَةٍ أَفْضَلَ تَطْمَئِنُّ فِيهَا النَّفْسُ، وَتَهْنَأُ القُلُوبُ، وَيَرْتَاحُ الفِكْرُ، وَيَأْمَنُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

إِسْلاَمُ سَعْدٍ

لَمَّا يَئِسَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ إِسْلاَمِ قُرَيْشٍ بَدَأَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ العَرَبِ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ، فَيَقِفُ عَلَى مَنَازِلِهِمْ، فَيَقُولُ: يَا بَنِي فُلاَنٍ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ هَذِهِ الأَنْدَادِ، وَأَنْ تُؤْمِنُوا بِي، وَتُصَدِّقُوا

بِي، وَتَمْنَعُونِي، حَتَّى أُبَيِّنَ عَنِ اللَّـهِ مَا بَعَثَنِي بِهِ. وَعَـرَضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَفْسَهُ عَلَى كِنْدَةَ، وَكَلْبٍ، وَبَنِي حَنِيفَةَ، وَبَنِي عَامِرِ بنِ صَعْصَعَـةَ، وَلَـكِنْ لَمْ يَجِـدْ مِنْ مُجِيبٍ، وَقَدْ يَكُونُ الرَّدُّ قَبِيحاً كَمَا وَقَعَ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ.

وَجَاءَ أَبُو الحَيْسَرِ، أَنَسُ بنُ رَافِعٍ، وَمَعَهُ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ قَدِمُوا إِلَـى مَكَّةَ يَلْتَمِسُـونَ الحِلْفَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَـى قَوْمِهِمْ مِنَ الخَزْرَجِ، فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ فِي خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟ فَقَالُوا لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي إِلَى العِبَادِ، أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الكِتَابَ. ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمُ الإِسْلاَمَ وَتَلاَ عَلَيْهِمُ القُرآنَ، فَقَالَ إِيَاسُ بنُ مُعَاذٍ وَهُوَ أَحَدُ الفِتْيَةِ، هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ، غَيْرَ أَنَّ أَبَا الحَيْسَرَ أَنَسَ بنَ رَافِـعٍ أَخَـذَ حَفْنَـةً مِنْ تُرَابِ البَطْحَاءِ وَضَرَبَ بِهَا وَجْـهَ إِيَاسِ بـنِ مُعَـاذٍ، وَقَـالَ: دَعْنَـا مِنْكَ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ جِئْنَا لِغَيْرِ هَذَا. وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْهُمْ، وَانْصَرَفُوا إِلَى المَدِينَةِ، وَكَانَتْ وَقْعَةُ بُعَاثٍ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ.

وَفِي المَوْسِمِ عَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

نَفْسَهُ عَلَى القَبَائِلِ ، كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ ، فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَ العَقَبَةِ لَقِيَ رَهْطَاً مِنَ الخَزْرَجِ أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ خَيْرَاً ، وَهُمْ سِتَّةُ نَفَرٍ.

فَقَالَ لَهُمْ : مَنْ أَنْتُمْ؟

قَالُوا : نَفَرٌ مِنَ الخَزْرَجِ .

قَالَ : أَمِنْ مَوَالِي يَهُود .

قَالُوا : نَعَم .

قَالَ : أَفَلاَ تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ؟ .

قَالُوا : بَلَى . فَجَلَسُوا مَعَهُ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّـهِ عَزَّ وَجَـلَّ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الإِسْلاَمَ ، وَتَلاَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ . فَقَـالَ بَعْضُهُـمْ لِبَعْضٍ : يَا قَوْمُ ، تَعْلَمُوا وَاللَّهِ إِنَّـهُ لَلنَّبِـيُّ الَّـذِي تَوَعَّـدُكُمْ بِهِ يَهُـودُ ، فَلاَ تَسْبِقَنَّـكُمْ إِلَيْهِ . فَأَجَابُـوهُ فِيمَـا دَعَاهُـمْ إِلَيْهِ ، بِأَنْ صَدَّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الإِسْلاَمِ ، وَقَالُوا : إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا ، وَلاَ قَوْمٌ بَيْنَهُمْ مِنَ العَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ بِكَ ، فَسَنَقْدُمُ عَلَيْهِمْ ، فَنَدْعُوهُمْ إِلَـى أَمْرِكَ ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلاَ رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ . ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ

اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَاجِعِينَ إِلَى بِلاَدِهِمْ، وَقَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا.

فَلَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ إِلَى قَوْمِهِمْ ذَكَرُوا لَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ حَتَّى فَشَا فِيهِمْ، فَلَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلاَّ وَفِيهَا ذِكْرٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَلَعَلَّ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ كَانَ مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ أَقْبَلُوا عَلَى الإِسْلاَمِ إِذْ وَجَدَ فِيْهِ كُلَّ مَا كَانَتْ تَهْفُو إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَتَطْمَحُ بِهِ، وَالحُلُولَ لِكُلِّ التَسَاؤُلاَتِ الَّتِي تُحَدِّثُهُ بِهَا نَفْسُهُ. وَأَحَبَّ لِقَاءَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاشْتَاقَ إِلَيْهِ، وَرَغِبَ أَنْ تُسْرِعَ بِهِ الأَيَّامُ لِيَحِلَّ المَوْسِمُ، وَيَتِمَّ اللِّقَاءُ، حَيْثُ كَانَ يَرَى الأَيَّامَ كُسَالَى لاَ تَجِدُّ فِي السَّيْرِ وَلاَ تُطِيلُ الخُطَا، وَإِنَّمَا تَمُرُّ خَامِلَةً بَطِيئَةَ الحَرَكَةِ وَئِيدَةَ الخُطَا، كُلُّ حَرَكَةٍ بِتَنَهُّدٍ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ بِزَفْرَةٍ، يَتَصَبَّبُ مِنْهَا العَرَقُ، وَيُنْهِكُهَا التَّعَبُ، وَهُوَ يَدْفَعُهَا دُونَ اسْتِجَابَةٍ، وَيَحُثُّهَا دُونَ تَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ، وَهُوَ يَدْفَعُ دُونَ كَلَلٍ، وَيَحُثُّ مِنْ غَيْرِ مَلَلٍ، وَمَضَتِ الأَيَّامُ بَعْدَ مَشَقَّةٍ وَطُولِ عَنَاءٍ.

فِي العَقَبَةِ الأولَى

وَأَقْبَلَ المَوْسِمُ، وَتَجَهَّزَ الحُجَّاجُ مُسْلِمُهُمْ وكَافِرُهُمْ وَلاَ يَعْرِفُ الكُفَّارُ المُسْلِمِينَ بَيْنَهُمْ، وَرُبَّما كَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ أَوَّلَهُمْ تَجهُّزاً وأَكْثَرَهُمْ حبّاً لِلْحركَةِ. وَانْطَلَقَ الرَّكْبُ، ورُبَّمَا كَانَ سَعْدُ أَوَّلَهُمْ انْطِلاَقاً وَأَسْرَعَهُمْ سَيْراً تَتَقَدَّمُ رَاحِلَتُهُ غَيْرَهَا مِنَ الرَّوَاحِلِ كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغَذِّيَ السَّيْرَ فَيَزْجُرُهَا فَتَنْطَلِقُ فَيَجِدُ نَفْسَهُ قَدْ تَقَدَّمَ الرَّكْبَ، فَيَعُودُ يَكْبَحُهَا وَيَشُدُّ بِعِنَانِهَا حَتَّى تُخَفِّفَ مِنْ سُرْعَتِهَا وَتَلْحَقَ بِهَا بَقِيَّةُ الرَّوَاحِلِ، وَاسْتَمَرَّتِ الحَالَةُ هَذِهِ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ بَيْنَ المَدِينَةِ وَمَكَّةَ.

وَكَانَ كُلَّمَا نَزَلَ القَوْمُ مَنْزِلاً لِيَأْخُذُوا قِسْطاً مِنَ الرَّاحَةِ، أَوْ لِيَتَزَوَّدُوا بِالمَاءِ، أَوْ لِيَتَنَاوَلُوا الطَّعَامَ كَانَ سَعْدُ حَرِيصاً عَلَى اخْتِصَارِ الوَقْتِ وَمِنَ المُشَجِّعِينَ عَلَى الرَّحِيلِ بِسُرْعَةٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ لِيَجِدَ فِي النَّوْمِ رَاحَةً وَلاَ لَذَّةً، وَكُلَّمَا أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُفَكِّرَ بِحُبِّ اللِّقَاءِ مَعَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَنِينِهِ إِلَيْهِ، وَرَغْبَتِهِ فِيهِ، وَانْقَضَتِ الأَيَّامُ.

وَصَلَ الرَّكْبُ إِلَى مَكَّةَ، وَشَهِدَ المَوْسِمَ، وَجَاءَ مَوْعِدُ اللِّقَاءِ مَعَ الحَبِيبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَ العَقَبَةِ، وَكَانَ سَعْدُ مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى المَكَانِ المُحَدَّدِ، وَتَمَّ

الإِجْتِمَاعُ، وَكَانَ الجَمِيعُ فِي غَمْرَةٍ مِنَ الفَرَحِ لاَ تُصَوَّرُ، وَفِي سَعَادَةٍ لاَ تُعَادِلُهَا سَعَادَةٌ، قَدْ لاَ يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِشِدَّةِ الغِبْطَةِ الَّتِي تُكَلِّلُهُ، وَلِهَيْبَةِ المُصْطَفَى عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.

وَكَانَ المُسْلِمُونَ فِي الرَّكْبِ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَلاَّ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً، وَلاَ يَسْرِقُونَ، وَلاَ يَزْنُونَ، وَلاَ يَقْتُلُونَ أَوْلاَدَهُمْ، وَلاَ يَأْتُونَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَلاَ أَرْجُلِهِمْ، وَلاَ يَعْصُونَهُ فِي مَعْرُوفٍ. وَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمُ الجَنَّةُ، وَإِنْ غَشَيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ. وَعُرِفَتْ هَذِهِ البَيْعَةُ بِبَيْعَةِ النِّسَاءِ، لأَنَّ الأَمْرَ بِالقِتَالِ لَمْ يَكُنْ قَدْ شُرِعَ بَعْدُ:

وَانْصَرَفَ القَوْمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا يُرِيدُونَ الانْصِرَافَ. وَأَرْسَلَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُصْعَبَ بنَ عُمَيْرٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُقْرِئَهُمُ القُرآنَ، وَيُعَلِّمَهُمُ الإِسْلاَمَ، وَيُفَقِّهَهُمْ فِي الدِّينِ، فَكَانَ يُسَمَّى بِالمَدِينَةِ المُقْرِىءَ مُصْعَبَ، وَكَانَ مَنْزِلُهُ عَلَى أَسْعَدِ بنِ زُرَارَةَ، وَكَانَ مُصْعَبُ هُوَ الَّذِي يَؤُمُّهُمْ بِالصَّلاَةِ. وَانْصَرَفَ الرَّكْبُ وَلَمْ

يَعْلَمِ الْكُفَّارُ مِنْه مَا دَارَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ مِنْهُمْ وَبَيْن رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ بَيْنَهُمْ مُسْلِمِينَ.

وَعَادَ الرَّكْبُ نَحْوَ المَدِينَةِ وَرَوَاحِلُ المُسْلِمِينَ الَّتِي كَانَتْ فِي طَرِيقِ القُدُومِ فِي الطَّلِيعَةِ أَصْبَحَتْ فِي المُؤخِّرَةِ وَكَأَنَّ الأَرْضَ تَشُدُّ قَوَائِمَهَا لاَ تُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَسِيرَ، تُرِيدُ أَنْ تَعُودَ بِهَا نَحْوَ مَكَّةَ مُلَبِّيَةً أَصْوَاتَ قُلُوبِ الَّذِينَ عَلَى تِلْكَ الرَّوَاحِلِ، وَوَصَلَ الرَّكْبُ إِلَى المَدِينَةِ، وَحَطَّ النَّاسُ رِحَالَهُمْ، وَاتَّجَهَ كُلٌّ إِلَى مَنْزِلِهِ، الكُفَّارُ مِنْهُمْ فِي حَرَكَةٍ وَضَجَّةٍ فَرِحِينَ بِلِقَاءِ الأَحِبَّةِ، مَسْرِعِينَ نَحْوَ البُيُوتِ رَغْمَ مُسْتَقْبِلِيهِمْ، وَالمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ فِي هُدُوءٍ وَصَمْتٍ قَدْ تَرَكُوا الحَبِيبَ فِي مَكَّةَ، يَسْأَلُهُمْ مُهَنِّئُوهُمْ بِالسَّلاَمَةِ عَنْ سِرِّ السُّكُوتِ فَيَحَارُونَ بِالجَوَابِ بَلْ لاَ يَعْرِفُونَهُ.

وَاسْتَقَرَّ كُلٌّ فِي دَارِهِ وَبَدَأَتِ السَّنَةُ تَعْصِرُ شُهُورَهَا عَصْراً لِيَمُرَّ شَهْرٌ إِثْرَ آخَرَ، وَالشُّهُورُ تَدْفَعُ أَيَّامَهَا دَفْعاً لِتَتَحَرَّكَ فَلاَ تَكَادُ تَتَزَحْزَحُ، وَالأَيَّامُ تَسْحَبُ سَاعَاتِهَا عَلَى مَسَارٍ خَشِنٍ فَلاَ تُسْحَبُ إِلاَّ بِكُلِّ مُقَاوَمَةٍ وَصَرِيرٍ، فَالمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ مِنَ الأَيَّامِ أَنْ تَتَحَرَّكَ لِيَأْتِيَ المَوْسِمُ، لِيَلْتَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنَّ الأَيَّامَ تَبْدُو لَهُمْ مُتَشَبِّثَةً فِي مَكَانِهَا لاَ تُطَاوِعُهُمْ فِي حَرَكَتِهَا وَإِنْ تَمُرُّ عَلَيْهِمْ فِيهَا سَاعَاتٌ مُضِيئَةٌ يَرَوْا فِي نُورِهَا قَبَساً

مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَا هُوَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُصَلِّي بِهِمُ الجُمْعَةَ كُلَّ أُسْبُوعٍ فِي نَقِيعِ الخَضِمَاتِ مِنْ حَرَّةِ بَنِي بَيَاضَةَ فِي هَزِمِ النَبِيتِ[1]، فَيَلْتَقِي بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَقَدْ وَصَلَ عَدَدُهُمْ إِلَى الأَرْبَعِينَ رَجُلاً، يَجْتَمِعُونَ، وَيَتْلُونَ القُرْآنَ، وَيَسْتَمِعُونَ إِلَى كَلِمَاتِ الخَيْرِ، وَيَشْعُرُونَ بِالأُخُوَةِ الصَّادِقَةِ... اللَّهُ أَكْبَرُ هَا هُوَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ سَيِّدُ الأَوْسِ يُسْلِمُ وَيَدْخُلُ مَعَهُ قَوْمُهُ بَنُو عَبْدِ الأَشْهَلِ جَمِيعاً، لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ عَنِ الإِسْلَامِ... كَثُرَ عَدَدُ المُسْلِمِينَ، وَالْتَقَى الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ بِالأُخُوَّةِ والصَّفَاءِ فِي ظِلِّ الإِسْلَامِ.

فِي العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ

اقْتَرَبَ المَوْسِمُ، وَتَهَيَّأَ النَّاسُ لِلْحَجِّ، وَاسْتَعَدَّ المُسْلِمُونَ، وَحَانَ وَقْتُ الرَّحِيلِ، وَتَحَرَّكَ المَوْكِبُ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ المَرَّةِ أَكْثَرَ سُرْعَةً، فَعَدَدُهُمْ أَكْبَرُ إِذِ انْطَلَقَ مِنْهُمْ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ رَاكِباً، وَبَعْدَ المَوْسِمِ أَسْلَمَ أَبُو جَابِرٍ عَبْدُاللَّهِ بنُ عَمْرِو بن حَرَامٍ، وَالْتَقَى مَعَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

---

(١) هزم النبيت: مرتفع في تلك الحرة على بعد عشرة كيلومترات من المدينة.

وَسَلَّمَ، فِي العَقَبَةِ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ حَسْبَ المَوْعِدِ الَّذِي ضَرَبَهُ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كَانَ المُسْلِمُونَ يَكْتُمُونَ أَمْرَهُمْ عَمَّنْ مَعَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةَ اللِّقَاءِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَامَ المُسْلِمُونَ مَعَ قَوْمِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجُوا مِنْ رِحَالِهِمْ لِمَوْعِدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانُوا يَتَسَلَّلُونَ تَسَلُّلَ القَطَا مُسْتَخْفِينَ، حَتَّى اجْتَمَعُوا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ العَقَبَةِ، وَكَانُوا ثَلاَثَةً وَسَبْعِينَ رَجُلاً وَامْرَأَتَيْنِ. فَلَمَّا حَانَ المَوْعِدُ حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ جَاءَ مُسْتَوْثِقاً لابْنِ أَخِيهِ. وَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخَذَ مِنْهُمُ المَوَاثِيقَ، وَبَايَعُوهُ بَيْعَةَ الحَرْبِ. وَاخْتَارَ مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، تِسْعَةً مِنَ الخَزْرَجِ، مِنْهُمْ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَثَلاَثَةً مِنَ الأَوْسِ.

وَاسْتَعْلَى المُسْلِمُونَ مِنَ الأَنْصَارِ بِإِيمَانِهِمْ بَعْدَ تِلْكَ البَيْعَةِ، وَشَعَرُوا أَنَّهُمْ - رَغْمَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ - أَنَّهُمْ أَقْوَى مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ جَمِيعاً، وَأَثْبَتُ مِنَ الرَّوَاسِي فِي وَجْهِ خُصُومِهِمْ مَهْمَا كَثُرُوا، فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ارْفَضُّوا إِلَى رِحَالِكُمْ. قَالَ لَهُ العَبَّاسُ بنُ عُبَادَةَ بن نَضْلَةَ: وَاللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ: إِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنَى غَداً بِأَسْيَافِنَا؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِنِ ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ، فَعَادُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ فَنَامُوا عَلَيْهَا حَتَّى الصَّبَاحِ.

فَلَمَّا أَصْبَحُوا جَاءَتْهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، فَقَالُوا لَهُمْ، يا مَعْشَرَ الخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا مِنْ حَيٍّ مِنَ العَرَبِ أَبْغَضُ إِلَيْنَا، أَنْ تَنْشُبَ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، مِنْكُمْ. فَانْبَرَى المُشْرِكُونَ مِنَ المَدِينَةِ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمُوهُ - وَقَدْ صَدَقُوا لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا شَيْئاً -.

وَسَارَ القُرَشِيُّونَ إِلَى عَبْدِاللَّهِ بنِ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ، فَقَالُوا لَهُ مِثْلَ مَا قَالُوا لِقَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الأَمْرُ جَسِيمٌ، مَا كَانَ قَوْمِي لِيَتَفَوَّتُوا عَلَيَّ بِمِثْلِ هَذَا، وَمَا عَلِمْتُهُ كَانَ. فَانْصَرَفُوا عَنْهُ.

وَنَفَرَ النَّاسُ مِنْ مِنًى، وَدَقَّقَتْ قُرَيْشٌ فِي الخَبَرِ فَوَجَدَتْهُ قَدْ كَانَ، فَخَرَجَتْ فِي طَلَبِ القَوْمِ، فَأَدْرَكَتْ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ

بِأَذَاخِرَ، ثُمَّ لَحِقَتْ بِالمُنْذِرِ بنِ عَمْرٍو، وَكِلاَهُمَا كَانَ مِنْ نُقَبَاءِ الأنْصَارِ. فَأَمَّا المُنْذِرُ فَأَعْجَزَ القَوْمَ، وَهَرَبَ، وَأَمَّا سَعْدٌ فَأَخَذُوهُ، فَرَبَطُوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ بِحَبْلِ رَحْلِهِ، ثُمَّ أَقْبَلُوا بِهِ حَتَّى أَدْخَلُوهُ مَكَّةَ يَضْرِبُونَهُ وَيَجْذِبُونَهُ بِجُمَّتِهِ (شَعْرِ رَأْسِهِ)، وَكَانَ ذَا شَعْرٍ كَثِيرٍ.

يَقُولُ سَعْدٌ: إِنِّي وَاللَّهِ لَفِي أَيْدِيهِمْ إِذْ طَلَعَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فِيهِمْ رَجُلٌ وَضِيءٌ أَبْيَضُ، شَعْشَاعٌ[1]، حُلُوٌّ مِنَ الرِّجَالِ[2]. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنْ يَكُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ القَوْمِ خَيْرٌ فَعِنْدَ هَذَا، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي رَفَعَ يَدَهُ فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لاَ وَاللَّهِ مَا عِنْدَهُمْ بَعْدَ هَذَا مِنْ خَيْرٍ.

فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي أَيْدِيهِمْ يَسْحَبُونَنِي إِذْ أَوَى إِلَيَّ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ مَعَهُمْ[3]، فَقَالَ: وَيْحَكَ! أَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ قُرَيْشٍ جِوَارٌ وَلاَ عَهْدٌ؟ قُلْتُ: بَلَى. وَاللَّهِ، لَقَدْ كُنْتُ أُجِيرُ لِجُبَيْرِ بنِ مُطْعِمِ بنِ عَدِيٍّ بنِ نَوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ تِجَارَهُ، وَأَمْنَعُهُمْ مِمَّنْ أَرَادَ ظُلْمَهُمْ بِبِلاَدِي، وَلِلْحَارِثِ بنِ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ؛ قَالَ: وَيْحَكَ! فَاهْتِفْ بِاسْمِ

---

(١) الشعشاع: الطويل الحسن.
(٢) هو سهيل بن عمرو.
(٣) أبو البَختري العاص بن هشام بن الحارث بن أسد.

الرَّجُلَيْنِ ، وَاذْكُرْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمَا. قَالَ: فَفعَلْتُ، وَخَرَجَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَيْهِمَا، فَوَجَدَهُمَا فِي المَسْجِدِ عِنْدَ الكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُمَا: إِنَّ رَجُلاً مِنَ الخَزْرَجِ الآنَ يُضْرَبُ بِالأَبْطَحِ وَيَهْتِفُ بِكُمَا، وَيَذْكُرُ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَكُمَا جِوَاراً، قَالاَ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ؛ قالاَ: صَدَقَ وَاللَّهِ، إِنْ كَانَ لَيُجِيرُ لَنَا تِجَارَتَنَا وَيَمْنَعُهُمْ أَنْ يُظْلَمُوا بِبَلَدِهِ. قَالَ: فَجَاءَا فَخَلَّصَا سَعْداً مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَانْطَلَقَ.

وَاجِبُ الكَرَمِ

وَعِنْدَمَا رَجَعَ رَكْبُ المَدِينَةِ مِنَ المَوْسِمِ إِلَى مَدِينَتِهِمْ وَأُطْلِقَ سَرَاحُ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ مِنْ أَسْرِهِ أَعْلَنَ الأَنْصَارُ الإِسلاَمَ وَبَدَؤُوا يَدْعُونَ إِلَى دِينِهِمْ، وَيُظْهِرُونَ عِبَادَتَهُمْ.

وَفِي مَكَّةَ أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَصْحَابِهِ بِالهِجْرَةِ إِلَى إِخْوَانِهِمُ الأَنْصَارِ فِي المَدِينَةِ، وَبَدَأَتْ وُفُودُ المُهَاجِرِينَ تَتَوَالَى مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، ثُمَّ تَبِعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ المُسْلِمِينَ،

وَقَامَتْ دَوْلَةُ الإِسْلاَمِ ، وَبَدَأَ رَسُولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُجَهِّزُ الغَزَوَاتِ وَيُرْسِلُ السَّرَايَا لِدِرَاسَةِ الأَرْضِ التِّي يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ القِتَالُ فِيهَا بَيْنَ دَوْلَتِهِ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ، وَيَتَعَرَّفُ عَلَى القَبَائِلِ ، وَيُحَاوِلُ عَقْدَ الأَحْلاَفِ مَعَهَا، أَوْ يَضْمَنُ بَقَاءَهَا عَلَى الحِيَاد - عَلَى الأَقلِّ - فِيمَا إِذَا وَقَعَ القِتَالُ.

وَأَحَسَّ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَعْدَ وُصُولِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالمُهَاجِرِينَ بِعِبءِ الوَاجِبِ عَلَيْهِ. فَهُوَ كَرِيمٌ مِنْ غَيْرِ وَاجِبٍ، فَكَيْفَ وَقَدْ غَدَا مُسْلِماً، وَالإِسْلاَمُ يَأْمُرُهُ بِالكَرَمِ ؟ وَكَيْفَ، وَقَدْ هَاجَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِخْوَانُهُ الكِرَامُ وَقَدْ تَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَمْلاَكَهُمْ بِمَكَّةَ؟ إِنَّ وَضْعَهُ يَخْتَلِفُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي السَّابِقِ ، لِذَا كَانَ يَدْعُو رَبَّهُ فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ هَبْ لِي مَجْداً، لاَ مَجْدَ إِلاَّ بِفِعَالٍ، وَلاَ فِعَالَ إِلاَّ بِمَالٍ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لاَ يُصْلِحُنِي القَلِيلُ وَلاَ أَصْلُحُ عَلَيْهِ.

كَانَ يُقَدِّمُ الكَثِيرَ عَلَى إِخْوَانِهِ المُهَاجِرِينَ، وَذَكَرْنَا أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ جَفْنَةٌ تَدُورُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِهِ. وَكَانَ يَنْحَرُ، وَيُطْعِمُ، وَيَهَبُ الشَّيْءَ الكَثِيرَ، فَكَانَ النَمُوذَجَ الحَيَّ فِي الكَرَمِ ، وَالمَثَلَ فِي العَطَاءِ. لَقَدْ كَانَ

أَخاً لِلْمُهَاجِرِينَ جَمِيعاً، كَمَا لَمْ يَنْسَ أُخُوَّتَهُ لِلأَنْصَارِ، وَبِذَا فَهُوَ أَخُو المُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

أَيَّامُ بَدْرٍ

وَلَمَّا تَمَّ مَسْحُ الأَرْضِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَدُورَ عَلَى سَاحَاتِهَا قِتَالٌ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ، وَانْتَهَى التَّعَرُّفُ عَلَى بَعْضِ القَبَائِلِ الَّتِي تَنْزِلُ فِي تِلْكَ الجِهَاتِ، وَالتَّحَالُفُ مَعَ بَعْضِهَا الآخَرِ، وَأَصْبَحَ المُسْلِمُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّدْرِيبِ وَالسَّيْرِ إِلَى القِتَالِ وَعَلَى قَدْرٍ كَافٍ مِنَ الرُّوحِ المَعْنَوِيَّةِ وَالرَّغْبَةِ إِلَى القِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الصِّدَامَ مَعَ قُرَيْشٍ.

وَصَلَ خَبَرٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ قَافِلَةً كَبِيرَةً لِقُرَيْشٍ بِإِمْرَةِ أَبِي سُفْيَانَ بنِ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ مُنْطَلِقَةٌ إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ إِلَيْهَا، وَوَصَلَ إِلَى العُشَيْرَةِ وَلَكِنَّهُ وَجَدَ أَنَّ العِيرَ قَدْ فَاتَتْهُ، فَرَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ وَادَعَ بَنِي مُدْلِجْ وَحُلَفَاءَهُمْ مِنْ بَنِي ضَمْرَةَ.

وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ التَّيْمِيَّ، وَسَعِيدَ بنَ زَيْدٍ العَدَوِيَّ إِلَى خَارِجِ المَدِينَةِ

يَرْصُدَانِ عَوْدَةَ قَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ بن حَرْبٍ، وَأَخْبَارِهِ بِالمَدِينَةِ مُجُرَّدَ سَمَاعِهِما بِرُجُوعِهَا وَجَاءَ الخَبَرُ بِاقْتِرَابِ القَافِلَةِ، فَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُسْلِمِينَ إِلَيْهَا، وَقَالَ: هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ، فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يُنْفِلُكُمُوهَا. فَانْتَدَبَ النَّاسَ، فَخَفَّ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَلْقَى حَرْباً.

وَقَامَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَدْعُو قَوْمَهُ الأَنْصَارَ لِلتَّحَرُّكِ وَالسَّيْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ مُتَقَدِّمُهُمْ، وَتَهَيَّأَ الجَمْعُ، وَتَحَرَّكَ الرَّكْبُ، وَلَمْ يَشَأَ اللَّهُ لِسَعْدٍ أَنْ يَسِيرَ مَعَهُمْ فَقَدْ نُهِشَ. وَطَلَبَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَمْكُثَ[1]. وَقَالَ: «لَئِنْ كَانَ سَعْدٌ لَمْ يَشْهَدْهَا لَقَدْ كَانَ حَرِيصاً عَلَيْهَا». وَرَوَى بَعْضُهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ضَرَبَ لَهُ بِسَهْمِهِ وَأَجْرِهِ[2].

---

(١) أما ما رواه مسلم، وأحمد، وآخرون من قوله: «إيانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا». فذلك قبل المسير إلى بدر التي لم يشهدها سعد بن عبادة، أما الذي تكلم قبيل المعركة بما يشبه هذا المعنى فهو سعد بن معاذ.

(٢) لم يثبت ذلك.

وَلَمْ يَتَخَلَّفْ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ عَنْ مَشْهَدٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَ بَدْرٍ أَبَداً، وَإِنَّمَا حَضَرَهَا جَمِيعَهَا. وَيُرْوَى أَنَّ رَايَةَ رَسُولِ اللَّهِ تَكُونُ بِيَدِّ عَلِيٍّ بن أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَرَايَةَ الأَنْصَارِ مَعَ سَعْدِ بن عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِي دَوْمَةِ الجَنْدَلِ

وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى دَوْمَةِ الجَنْدَلِ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الخَامِسَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا، إِذْ لَمْ يَلْقَ كَيْداً، فَرَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ. وَكَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ مَعَهُ فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، فَلَمَّا عَادَ وَجَدَ أُمَّهُ قَدْ تُوفِّيَتْ، وَهِيَ مِنَ اللَّوَاتِي بَايَعْنَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَتَى سَعْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهَا، فَصَلَّى عَلَيْهَا وَقَدْ أَتَى لَهَا شَهْرٌ.

وَاسْتَفْتَى سَعْدٌ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي نَذْرٍ كَانَ عَلَى أُمِّهِ فَتُوفِّيَتْ قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْضِهِ عَنْهَا.

وَأَتَى سَعْدٌ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ وَلَمْ تُوصِ فَهَلْ يَنْفَعُهَا أَنْ أَصَّدَّقَ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟. قَالَ: اسْقِ الْمَاءَ. فَجَعَلَ سِقَايَةً فِي الْمَسْجِدِ.

وَرُوِيَ أَنَّ سَعْداً قَد أَتَى النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي تُوفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا أَفَيَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ حَائِطِي المِخْرَافَ صَدَقَةٌ عَنْهَا.

فِي غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ (١)

عِنْدَمَا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ وَاقْتَرَبَ مِنَ المَدِينَةِ، وَارْتَحَلَ بَعْدَ مَبِيتٍ،

---

(١) حدث خلاف في روايات تاريخ هذه الغزوة، تقول بعضها: إنها وقعت في شهر شعبان من العام الرابع للهجرة، وهو بعيد، حسب رأيي، ويقول بعضها: في شهر شعبان من العام الخامس للهجرة، وهو الأصح ـ حسب رأيي ـ ومنها ما يقول: في شعبان من العام السادس، وما أظن ذلك، فإن كان الرأي الأخير على غير ما أظن فإن المنازعة التي وقعت إنما هي بين أُسيد بن الحضير سيد الأوس وبين سعد بن عبادة سيد الخزرج لأن سعد ابن معاذ كان قد استشهد في أواخر السنة الخامسة إثر غزوة بني قريظة.

خَرَجَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لِبَعْضِ حَاجَتِهَا، فَتَأَخَّرتْ عَنِ الرَّكْبِ، وَكَانَتْ حَادِثَةُ الإِفْكِ، وَتَكَلَّمَ بَعْضُ النَّاسِ، وَتَوَلَّى كِبَرَ المَوْضُوعِ كَبِيرُ المُنَافِقِينَ عَبْدُاللَّهِ بنُ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَطَبَ فِي النَّاسِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ مَا بَالُ رِجَالٍ يُؤْذُونَنِي فِي أَهْلِي، يَقُولُونَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الحَقِّ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُمْ إِلاَّ خَيْراً، وَيَقُولُونَ ذَلِكَ لِرَجُلٍ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ إِلاَّ خَيْراً، وَمَا يَدْخُلُ بَيْتاً مِنْ بُيُوتِي إِلاَّ وَهُوَ مَعِي.

فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تِلْكَ المَقَالَةَ، قَالَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ يَكُونُوا مِنَ الأَوْسِ نَكْفِكَهُمْ، وَإِنْ يَكُونُوا مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ فَمُرْنَا بِأَمْرِكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُمْ لأَهْلٌ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ، فَقَامَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، لاَ تَضْرِبُ أَعْنَاقَهُمْ، أَمَا وَاللَّهِ مَا قُلْتَ هَذِهِ المَقَالَةَ إِلاَّ أَنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُمْ مِنَ الخَزْرَجِ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ قَوْمِكَ مَا قُلْتَ هَذَا! قَالَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، وَتَسَاوَرَ[1]

(١) تساور: قام بعضهم إلى بعض.

النَّـاسُ، حَتَّـى كَادَ يَكُونُ بَيْنَ هَذَيْنِ الحَيَّيْنِ مِنَ الأوْسِ وَالخَزْرَجِ شَرٌّ[1].

وَجَاءَ الوَحْيُ فَبَرَّأَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ

حَزَّبَ اليَهُودُ الأحْزَابَ لَغَزْوِ المَدِينَـةِ، فَخَرَجَـتْ قُرَيْشٌ، وَقَائِدُهَا أَبُو سُفْيَانَ بـنُ حَرْبٍ، وَخَرَجَـتْ غَطَفَـانُ، وَقَائِدُهَـا عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ فِي فَزَارَةَ، وخرج الحَارِثُ بنُ عَوْفٍ فِي بَنِي مُرَّةَ. فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا أَجْمَعُوا لَهُ مِنَ الأمْرِ، ضَرَبَ الخَنْدَقَ عَلَى المَدِينَةِ.

---

(١) كان عبدالله بن أبي بن سلول سيد الخزرج في الجاهلية، وكان قومه قبل الهجرة ينظمون له الخرز ليتوجوه، فلما جاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مهاجراً إلى المدينة ضاع عبدالله بن أبي وأمثاله، فكأنه يرى أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد استلبه ملكه، وهـذا ما أخـرّه عن إظهار الإسلام، وجعله كبير المنافقين.

وأصبح سعد بن عبادة، رضي الله عنه، سيد الخزرج الذين دخلوا في الإسلام، فلما أظهر ابن أبي الإسلام أصبح من أتباع سعد بن عبادة، وإن كان يرى في نفسه أكبر من سعد.

ومن واجب السيد أن يدافع عن أتباعه، ولذا اجتهد سعد ودافع عنه، وهو اجتهاد في غير محله، وليفوّت على أبي ادعاء الزعامة، ولذا فقد اتهم بما ذكرت، وجعل عائشة، رضي الله عنها، تقول في حديثها الذي روته عن حادثة الإفك: وكان يرى قبل ذلك رجلاً صالحاً.

وَجَاءَ الأَحْزَابُ، وَنَقَضَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَهْدَهَا مَعَ المُسْلِمِينَ، وَاشْتَدَّ البَلاَءُ وَعَظُمَ المَوْقِفُ، وَعِنْدَهَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلى عُيَيْنَةَ بنِ حِصْنٍ، وَإِلَى الحَارِثِ بنِ عَوْفٍ المُرِّيِّ، وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ، فَأَعْطَاهُمَا ثُلُثَ ثِمَارِ المَدِينَةِ عَلَى أَنْ يَرْجِعَا بِمَنْ مَعَهُمَا عَنْهُ وَعَنْ أَصْحَابِهِ، فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا الصُّلْحُ، حَتَّى كَتَبُوا الكِتَابَ وَلَمْ تَقَعِ الشَّهَادَةُ وَلاَ عَزِيمَةُ الصُّلْحِ، إِلاَّ المُرَاوَضَةُ فِي ذَلِكَ. فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَفْعَلَ، بَعَثَ إِلَى سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمَا، وَاسْتَشَارَهُمَا فِيهِ؛ فَقَالاَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْراً تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئاً أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ، لاَ بُدَّ مِنَ العَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئاً تَصْنَعُهُ لَنَا؟ قَالَ: بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللَّهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلاَّ لأَنَّنِي رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالبُوكُمْ[1] مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا؛ فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلاَءِ القَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِاللَّهِ، وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، لاَ نَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لاَ يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلاَّ قِرىً أَوْ بَيْعاً، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالإِسْلاَمِ، وَهَدَانَا لَهُ وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ، نُعْطِهِمْ أَمْوَالَنَا!

---

(١) كالبوكم: اشتدّوا عليكم.

وَاللَّهِ مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللَّهِ لاَ نُعْطِيهِمْ إِلاَّ السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَنْتَ وَذَاكَ. فَتَنَاوَلَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ الصَّحِيفَةَ، فَمَحَا مَا فِيهَا مِنَ الكِتَابِ، ثُمَّ قَالَ: لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا.

ثُمَّ نَصَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ.

فِي فَتْحِ مَكَّةَ

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِفَتْحِ مَكَّةَ فِي العَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ لِلسَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ. وَكَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ يَحْمِلُ لِوَاءَ الأَنْصَارِ، وَشَعَرَ أَنَّ قُرَيْشاً الَّتِي أَخْرَجَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ ذَلَّتْ، وَأَنَّ الرِّجَالَ الَّذِينَ قَدْ آذَوْا إِخْوَانَهُ المُسْلِمِينَ قَدْ خَنَعُوا، فَقَالَ: اليَوْمُ يَوْمُ المَلْحَمَةِ، اليَوْمُ تَسْتَحَلُّ الحُرُمَةُ، فَسَمِعَهَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْمَعْ مَا قَالَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، مَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي قُرَيْشٍ صَوْلَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ: أَدْرِكْهُ، فَخُذِ الرَّايَةَ مِنْهُ، فَكُنْ أَنْتَ الَّذِي تَدْخُل بِهَا. وَقِيلَ: بَلْ أُخِذَتِ الرَّايَةُ مِنْهُ وَأُعْطِيَتْ لابْنِهِ قَيْسِ بنِ سَعْدٍ.

فِي حُنَيْنٍ

لَمَّا سَمِعَتْ هَوَازِنُ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ، عبأت جموعها مع ثقيفٍ، ونصرٍ، وجُشَمَ كُلَّهَا، وَبَعْضِ بَنِي هِلاَلٍ. وَقَرَّرُوا السَّيْرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَلَمَا أُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِذَلِكَ سَارَ إِلَيْهِمْ بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً، مِنْهُمْ عَشْرَةُ آلاَفٍ جَاءُوا مَعَهُ مِنَ المَدِينَةِ لِلْفَتْحِ، وَأَلْفَانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ. وَقَدْ أُعْجِبَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ بِكَثْرَتِهِمْ.

سَبَقَ المُشْرِكُونَ المُسْلِمِينَ إِلَى حُنَيْنٍ وكَمَنُوا لَهُمْ، فَمَا أَنْ وَصَلَ المُسْلِمُونَ إِلَى ذَلِكَ الشِّعْبِ حَتَّى انْقَضَّ عَلَيْهِمُ المُشْرِكُونَ وَفَاجَؤُوهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَفَرَّ المُسْلِمُونَ وَثَبَتَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ مَنْ ثَبَتَ، وَأَمر عَمَّهُ العَبَّاسَ أَنْ يُنَادِيَ المُسْلِمِينَ بِأَنْ يَثُوبُوا إِلَى رُشْدِهِمْ فَانْتَبَهُوا وَعَادُوا إِلَى رَسُولِهِمُ الكَرِيمِ، وَحَمَلُوا عَلَى المُشْرِكِينَ حَمْلَةً عَنِيفَةً أَزَاحَتْهُمْ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ فَهُزِمُوا وَانْتَصَرَ المُسْلِمُونَ وَحَازُوا غَنَائِمَ كَثِيرَةً جِدّاً. ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ

سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلى المُؤْمِنِينَ وَأَنْـزَلَ جُنُـوداً لَمْ تَرَوْهَـا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾[1].

جُمِعَتِ السَّبَايَا وَالأَمْوَالُ وَالغَنَائِمُ كَافَّةً لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَارَ بَعْدَهَا إِلَى الطَّائِفِ فَحَاصَرَهَا، وَقَاتَلَ أَهْلَهَا ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهَا، وَسَارَ حَتَّى نَزَل (الجِعْرَانَةَ) فَجَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، وَاسْتَبْقَى الأَمْوَالَ، ثُمَّ وَزَّعَهَا فَأَعْطَى المُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ فِي قُرَيْشٍ وَفِي قَبَائِلِ العَرَبِ عَطَايَا كَثِيرَةً، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، فَوَجَدَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُمُ القَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ، لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَاماً فِي قَبَائِلِ العَرَبِ، وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا الحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ. قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلاَّ مِنْ قَوْمِي. قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الحَظِيرَةِ. فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ الأَنْصَارَ فِي تِلْكَ

(١) سورة التوبة ٢٥ ـ ٢٦.

الحَظِيرَةِ. فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ، وَجَاء آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لَهُ أَتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَتَاهُـمْ رَسُـولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ: مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُـوهَـا عَلَـيَّ فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ! قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّـهِ أَمَـنُّ وَأَفْضَلُ. ثُمَّ قَالَ: أَلاَ تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟ قَالُوا: بِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ المَنُّ وَالفَضْلُ. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ قُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَـاكَ، وَمَخْـذُولاً فَنَصَرْنَـاكَ، وَطَـرِيداً فَآوَيْنَـاكَ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ. أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَـرَ الأَنْصَـارِ فِي أَنْفُسِـكُمْ فِي لُعَاعَةٍ[1] مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمـاً لِيُسْلِمُـوا، وَوَكَلْتُـكُمْ إِلَـى إِسْلاَمِكُمْ، أَلاَ تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَنْ يَذْهَـبَ النَّـاسُ بِالشَّاةِ وَالبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِـكُمْ؟ فَوَالَّـذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْـرَأً مِنَ الأَنْصَـارِ، وَلَـوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبَاً وَسَلَكَتِ الأَنْصَـارُ شِعْبَـاً، لَسَلَـكْتُ شِعْـبَ

(١) بقلة خضراء ناعمة، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

الأنْصَارِ. اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأنْصَارِ، وأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأنْصَارِ.

فَبَكَى القَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قَسْمَاً وَحَظَّاً. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّـهِ، صَلَّـى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرَّقُوا.

فِي سَقِيفَةَ بَنِي سَاعِدَةَ

تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ رَاضٍ عَنْ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ. وَشَعَرَ الأنْصارُ أَنَّهُ قَدْ غابَ عَنْهُمُ المُطَـاعُ، الَّذِي يُوحَى إِلَيْهِ، الَّـذِي نَظَّـمَ الدَّوْلَـةَ، وَشَعَـرَ الأنْصَـارُ أَنَّ مَدِينَتَهُمْ مُهَدَّدَةٌ مِنَ الأعْرَابِ وَرِجَالِ القَبَائِلِ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلِ الإِيمَـانُ إِلـى قُلُوبِهِـمْ، وَإِنَّمَـا أَسْلَمُـوا خَوْفَـاً مِنَ القُـوَّةِ، وَيَتَرَبَّصُونَ الدَّوَائِرَ بِالمَدِينَةِ، وَيَتَحَيَّنُـونَ بِهَـا الفُـرَصَ، وَأَنَّ الرِّدَّةَ قَدْ ظَهَرَتْ فِي بَعْضِ المَنَاطِقِ قَبْلَ وَفَاةِ رَسُـولِ اللَّـهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَشَعَرَ الأنْصَارُ أَنَّهُمْ مُهَدَّدُونَ قَبْلَ غَيْرِهِمْ مِنْ قِبَلِ الأعْرَابِ وَرِجَالِ القَبَائِلِ لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّـى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَيَّدُوا المُهَاجِرِينَ، وَكَانُـوا دَعَامَـةَ الدَّوْلَـةِ

الإِسْلاَمِيَّة الَّتِي أَخْضَعَتِ الأعْرَابَ وَخَضَدَتْ شَوْكَتَهُمْ.

وَشَعَرَ الأنْصَارُ أَنَّ المُهَاجِرِينَ رُبَّمَا عادُوا إِلى مَكَّةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِهِمُ الكَرِيمِ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ، وَقَدْ ظَنُّوا هَذَا بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَكَلَّمُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكُلُّ هَذَا جَعَلَ الأنْصَارَ يَلْتَقُونَ وَيَبْحَثُونَ فِي هَذَا الأمْرِ، وَقَدِ اجْتَمَعُوا فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ وَاخْتَارُوا سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَمِيْرَاً عَلَيْهِمْ لِمُعَالَجَةِ المُشْكِلاَتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَنْجُمَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَتَعَرَّضَ لَهَا المَدِينَةُ.

أَمَّا المُهَاجِرُون فَقَدْ كَانُوا أَكْثَر بُعْدَاً عَنْ هَذَا المَوْضُوعِ، بَعْضُهُمْ شُغِلَ بِوَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَفْنِهِ، وَبَعْضُهُمْ لاَ تَزَالُ وَفَاةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَمْلأُ نَفْسَهُ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُفَكِّرْ فِي اخْتِيَارِ خَلِيفَةٍ بَعْدُ، إِذْ أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يُدْفَنْ بَعْدُ، وَلَمْ يُفَكِّرْ بِمَوْضُوعٍ رُبَّمَا يَقَعُ فِيْهِ خِلاَفٌ، أَوْ لَمْ يَكُنْ المُهَاجِرُونَ عَلَى تِلْكَ الحَسَاسِيَّةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الأنْصَارُ مِنْ حَيْثُ الخَوْف مِنَ الأعْرَابِ وَرِجَالِ القَبَائِلِ وَالخَوْفِ عَلَى المَدِينَةِ.

وَعَلِمَ المُهَاجِرُونَ بِاجْتِمَاعِ الأنْصَارِ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ

فَسَارَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بـنُ الخَطَّـابِ، وَأَبُـو عُبَيْدَةَ بـنُ الجَرَّاحِ ، وَجَرى حِوَارٌ وَنِقَاشٌ فِي مَوْضُوعِ الإمارة، وَرَأى الأنْصَارُ أَنَّ الحَـقَّ لِلْمُهَاجِـرِينَ، وَأَنَّ وُجُـودَ الخِلاَفَـةِ فِيهِـمْ يُبْقِيهِـمْ فِي المَدِينَـةِ، وَفِـي بَقَائِهِـمْ قُوَّةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَوَحْـدَةٌ لِكَلِمَتِهِمْ، وَقُوَّةٌ لِلْمَدِينَةِ، وَمَنَعَـةٌ لَهَـا، وَإِخَافَـةٌ لِلأعْـرَابِ، وَمَنْعِهِمْ مِنْ أَنْ يَعْتَدُوا عَلَيْهَا، وَلِذَا فَمِنَ الوَاجِبِ وَالمَصْلَحَـةِ التنازلُ عنِ الخِلاَفَةِ لِلْمُهَاجِرِينَ وَمُبَايَعَةُ أَحَدِهِمْ.

وَتَمَّتِ البَيْعَةُ لأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَبَـايَعَ الأنْصَارُ كُلُّهُمْ سِوَى سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صَاحِبِ الحَسَاسِيَّةِ الخَاصَّةِ، وَالْغِيرَةِ الشَّدِيدَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُبْـدِ شَيْئـاً، وَلَمْ يَقِفْ مَوْقِفاً مُخَالِفاً، وَإِنَّمَا بَقِيَ صَامِتاً، وَانْقَضَتْ خِلاَفَـةُ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَتْ مَوَاقِفُ سَعْدِ بـنِ عُبَـادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِيجَابِيَّةً، فِي بَعْثِ أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَفِي حُرُوبِ الرِّدَّةِ، وَفِي كُلِّ المَوَاقِفِ، وَلَكِنَّـهُ بَعِيداً عَنِ الاحْتِكَاكِ بالأمُورِ فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى شِبْهِ العُزْلَةِ.

وَفَاةُ سَعْدٍ

كَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَجُـلاً صَرِيحَـاً، لاَ يَعْرِفُ المُسَايَرَةَ، وَشَدِيدَ التَّشَبُّثِ فِيمَـا يَرى أَنَّـهُ حَقٌّ، وَهَـذِهِ

الشِّدَّةُ قَدْ دفَعَتْهُ إِلَى مَوَاقِفَ كَانَتْ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ لَهُ، وَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَهَا، وَلَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ إِلاَّ إِعْلاَنَ مَا يَعْتَقِدُ دُونَ أَنْ يَحْمِلَ فِي نَفْسِهِ شَيْئاً آخَرَ.

وَتَوَلَّى عُمَرُ بنُ الخَطَّاب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الخِلاَفَةَ، وَرَأى سَعْدُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الجِهَادِ، رَغْمَ تَقَدُّمِ السِّنِّ بِهِ، لِيَتَخَلَّصَ مِنْ شِبْهِ العُزْلَةِ الَّتِي يَحْيَاهَا، وَتَاقَتْ نَفْسُهُ لِلْجِهَادِ، وَرَغِبَ فِيْهِ حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَرَى سِوَاهُ أَمَامَهُ. وَالْتَقَى بِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِيهِ يَا سَعْدُ! فَقَالَ لَهُ: إِيهِ يَا عُمَرُ! فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ صَاحِبُ مَا أَنْتَ صَاحِبُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَقَدْ أَفْضَى إِلَيْكَ هَذَا الأَمْرُ، وَكَانَ صَاحِبُكَ وَاللَّهِ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْكَ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ كَارِهاً لِجِوَارِكَ(١). قَالَ لَهُ عُمَرُ: مَن كَرِهَ جِوَارَ جَارِهِ، تَحَوَّلَ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ: إِنِّي مُتَحَوِّلٌ إِلَى جِوَارِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ(٢).

وَسَارَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ إِلَى الشَّام، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ بِحَوْرَانَ مِنْ أَعْمَالِ بِلاَدِ الشَّامِ جَنُوبِ دِمَشْقَ، وَذَلِكَ فِي السَّنَةِ الخَامِسَةِ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ، وَشَاعَتْ الرِّوَايَاتُ بِمَوْتِهِ وَعَنْ

---

(١) راغباً في الجهاد.
(٢) شعر بدنو الأجل، ويقصد أنه متحول إلى جوار ربه.

مَوْتِهِ، فَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُ بَالَ وَاقِفاً فِي جَحْرٍ، فَقَتَلَتْهُ الجِنُّ، وَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّهُ لَمْ يُعْلَمْ بِمَوْتِهِ بِالمَدِينَةِ حَتَّى سَمِعَ غِلْمَانٌ يَسِيرُونَ فِي نَصْفِ النَّهَارِ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الحَرِّ قَائِلاً فِي بِئْرٍ يَقُولُ:

قَدْ قَتَلْنَا سَيِّدَ الخزْ ... رَجِ سَعْدَ بنَ عُبَادَهْ

وَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْـ ... ـنِ فَلَمْ نُخْطِ فُؤَادَهْ

وَتُنْسَبُ لَهُ قَرْيَةُ «الشَّيْخِ سَعْدٍ» فِي حَوْرَانَ إِلى الجَنُوبِ مِنْ بَلْدَةِ «نَوى» بَيْنَهَا وَبَيْنَ دَرْعَا، وَيُقَالَ: إِنَّهُ مَاتَ فِيهَا، وَدُفِنَ هُنَاكَ. كَمَا يُنْسَبُ لَهُ قَبْرٌ فِي قَرْيَةِ المُنَيْحَةِ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ دِمَشْقَ، وَفِي غُوطَتِهَا، إِلَى الشَّرْقِ مِنْهَا.

وَكَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ إِلَى الشَّامِ قَدْ قَسَّمَ أَمْوَالَهُ وَأَمْلاَكَهُ بَيْنَ أَوْلاَدِهِ.

كَانَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِضَافَةً إِلى صَرَاحَتِهِ، يَقُولُ مَا يَجُولُ فِي خَاطِرِهِ بِسُرْعَةٍ، وَيُعَلِّلُ ذَلِكَ، وَيَتَمَسَّكُ بِهِ، هَذَا إِضَافَةً إِلَى الغِيرَةِ الكثيرة لَدَيْهِ، وَالدِّفَاعِ عَنْ قَوْمِهِ، وَمُحَاوَلَةِ إِيجادِ المُبَرِّرَاتِ.

يُرْوى أَنَّهُ لَمَا نَزلَتْ آيَةُ ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُـونَ المُحْصَنَـاتِ ﴾[1] قَالَ سَعْدُ سَيِّدَ الأنْصَارِ: هَكَذَا أُنْزِلَتْ يَا رَسُـولَ اللَّـهِ؟ فقـال النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ؟ قَالُوا: لاَ تَلُمْهُ! فَإِنَّـهُ غَيُورٌ، وَاللَّـهِ مَا تَزَوَّجَ امْرَأَةً قَطُّ إِلاَّ بِكْرَاً، وَلاَ طَلَّقَ امْرَأَةً قَطُّ فَاجْتَرَأَ أَحَـدٌ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا[2]. فَقَالَ سَعْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّـهِ لأَعْلَـمُ أَنَّهَـا حَقٌّ، وَأَنَّهَا مِنَ اللَّهِ، وَلَكِنِّي قَدْ تَعَجَّبْتُ أَنْ لَوْ وَجَدْتُ لَكَاعِ قَدْ تَفَخَّذَهَا رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ لِي أَنْ أُهَيِّجَهُ وَلاَ أُحَرِّكَهُ حَتَّى آتِيَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَلاَ آتِي بِهِمْ حَتَّى يَقْضِي حَاجَتَهُ.

رَوَى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تِسْعَةَ أَحَادِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) سورة النور: الآية ٤: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فاجْلُدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَـادَةً أَبَـداً وَأُولَئِـكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾.

(٢) لا يمكن أن يتصوّر رجلاً سبقه على امرأة، ولا أن يحلّ مكانه آخر.